القسم العمومي

﴿ نظام الحب والبغض ﴾ (تابع ويتبع)

(بقية الكلام في رابطة الدين)

ان الذين ما أرادوا الا الاصلاح ما استطاعوا يتألف هداهم الذي يدعون اليه في كل جيل وكل قبيل من ركنين مشيدين ، على اساسين متينين . الاول توجيه النفوس الانسانية الى عالم الغيب لان هنالك كمالها المعد لها بحسبها . وأساس هذا الركن ان النفس الانسانية — هذه التحفة البديعة التي لم تزل من الاسرار الغامضة — لم تخلق عبثا ، والثاني ترقيق عواطف الناس بعضهم على بعض ليخفف بتواخي الكثيرين بعض من التعادي القديم العمومي الوحشي . وأساس هذا الركن ان كمال كل نفس في عالمي الشهادة والغيب بغيرها سواء فضلت افادتها للغير أو فضلت استفادتها أو استوتا .

ثم ان كل ركن من هذين الركنين مبني من أجزاء كثيرة . وهذه الاجزاء تكون بحسب الادوار والاجيال . فلهذه العلة تختلف صور الاديان وجوهرها واحد .

هذه الاجزاء نسميها وسائل . ولاختلافها بحسب الحال فيما يدعو اليه المتعددون تعددت الاديان باعتبار تعدد الدعاة وباعتبار تخالف الوسائل .

فأما الراسخون في هذا العلم فما زالوا ولا يزالون يعظمون أمر ذلك الجوهر الذي يهدي سبل السلام ويخرج من الظلمات الى النور

وأما البعيدون عن العلم فلا يستغنون عن قائد يقودهم في مناهج تلك الوسائل فالبشرى لهم ان كان قائدهم مصلحاً مخلص القلب والويل لهم ان كان قائدهم مفسداً . وبالجملة فشان هؤلاء ان يظنوا أن الوسائل روح الدين ، والتذايج في سبيلها نهاية عمل الطيبين الطاهرين ، وغاية الزلفى عند رب العالمين .

ولتأييد ما ذكرناه آنفا من وحدة الجوهر لزم ان نورد شهادات من كتب الاديان . ويجدر ان نقدم بين يدي ذلك قولنا : « ان هذا الذي علمناه بعد قراءة اسفار الامم ، وصحف أحبال الشعوب ، قد أوحي لنبي أمي لم يقرأ سفراً ، ولم يخط سطراً » فما أعظم تلك المنحة (عليه الصلاة والسلام) .

فما أوحي اليه : « قل يا أهل الكتاب (علم على اليهود والنصارى) تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم (هي) أن لا نعبد (أي ان لا نرجو ولا نخاف شيئا من الاشياء

رجاء يقارنه حب واحترام ، وشوق وهيام ، وخوفاً يقارنه هيبة واعظام ، وخنوع واهتمام) الا الله (الصانع المدبر من به قوام الكوائن واليه يعود نظامها) ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً (أي يقام الارباب من السلطة المطلقة) من دون الله (بل لله وحده السلطة المطلقة والكمال المطلق والقدس المطلق) أفلم تروا ان قوله « سواء بيننا وبينكم » يفيد ما نحن بصدده من وحدة جوهر الدين .

ومما أوحي اليه : — « ان الذين آمنوا (علم على اتباع محمد صلى الله عليه وسلم في زمانه) والذين هادوا (علم على اتباع موسى) والنصارى (علم على اتباع عيسى) والصابئين (علم على طائفة كانوا ببابل) من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً (ما يصلح لسعادة النفس) فلهم أجرهم عند ربهم (كل على حسبه) ولا خوف عليهم (من اختلاف النسبة) ولاهم يحزنون (على فوات أجر العمل) »

أولم تروا ان ذكر الذين هادوا والنصارى والصابئين مع الذين آمنوا بمحمد ثم الوعد بالجزاء الذي ينفي الخوف والحزن لدى الايمان بالغيب والعمل الصالح يفيد ان هذا هو الدين المطلوب من كل لا الانتماء للاسماء .

ومما أوحي اليه : — « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب (أي التوراة والانجيل) ومهيمنا عليه (أي شاهداً) فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم (اي ظنونهم بأن وسائلهم لا تنسخ) عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا (اي في الوسائل) ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة (أي متفقة المناهج في السلوك لبلوغ الركنين المقصودين في الدين) ولكن ليبلوكم (اي ليظهر استعداد كل منكم بحسب زمانه ومكانه) فيما آتاكم (من آلات العلم والعمل) فاستبقوا الخيرات (أي استعملوا الآلات فيما خلقت من أجله لتكون لكم العلوم النافعة والاعمال الرافعة وهي الخيرات بحذافيرها . وهذا الخطاب حنان وتفضل على الفطرة ومنح لها السعة في القابلية) الى الله مرجعكم جميعاً (أي الى الموقف الغيبي الذي تنال فيه نفوسكم ما أعدت لها بحسب ما قدمت في الموقف الحسي) فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . (اي ينكشف لكم هنالك ما حجبه الحس عنكم هنا) . »

وشواهد هذا المعنى من القرآن المجيد كثيرة . وللاختصار نكتفي بما تقدم ذكره

ونكتفي أيضاً بشاهد واحد مما في كتب العهدين (القديم والجديد) فليكن جامعاً هذا المعنى المجمع عليه في العهدين: سئل المسيح : « يامعلم أي وصية هي العظمى في الناموس . فقال له يسوع تحب الرب من كل قلبك ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك . هذه هي الوصية الاولى والعظمى . والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك . بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والانبياء » (متى ص٢٢) أو لم تروا كمال المطابقة بين ماعبرنا عنه هنالك في وصف الركنين وبين ماعبر به هنا عنهما .

وانا قد كتبنا هذه الادلة للمتدينين الذين قد يعيرون البال لامثال هذا المعنى أما غيرهم فسوف يقولون سواء علينا أصحت هذه الدعوى ام لم تصح فانا قوم ننظر للواقع فنأخذ منه نفس الامر . ونحن نقابلهم فنقول سواء علينا أذعنتم ام لم تذعنوا فأنا قوم ننظر للجوهر ، ولا نعبأ بالصور ،

وهانحن اولاء نبين لكم كيف تغايرت الوسائل حتى تغايرت صور هذه الاديان:

إن فروع كل قانون من قوانين العالم في الاخلاق وفي نظام الاجتماع تتكون بحسب الحيل والقبيل وقد يحدث في فهم المخاطبين بها تفاوت فيكون البون بين قانون وقانون وهذا أمثله ذلك

(١) في بعض الاحيال سن عمل شيء لتأليف القلوب . وفي أحيال أخرى كان ذلك العمل من مفرقاتها .

(٢) في بعض الاحيال شرع عمل لضرورة وفي أخرى لم تكن الضرورة تلك .

(٣) خوطب قوم برموز فأخذها آخرون على ظاهرها وخوطب قوم بصريح فقالوا هذه رموز !!!

(٤) رغب قوم بسعادة الحس وأرهبوا من شقائه وآخرون رغبوا بسعادة الغيب وأرهبوا من شقائه وشوق آخرون للامرين فهام الأولون بوسائل الملك والغلبة على الامم . وهام التالون برفض النعيم في هذا العالم وعدم المبالاة بجحيمه . واعتدل الآخرون فطلبوا نصيباً من ههنا وهنا . واختلفوا بكلتا الوسيلتين فكيف تتساوى الفروع ههنا ؟

فأنتم ترون من هذه الامثلة وما ستقيسون عليها أن الوسائل ضروري فيها التغير وما كان تحت التغير فهل يكون الروح واللب ؟

وكثيراً ما تتفق بعض الاجزاء بالمعنى ويفترق دوالها ما بين صريح أو رمز كالتعبير عن كون الخالق خلق الخلق اضداداً بأن العالم نشأ من الظلمة والنور أو أن الظلمة نشأت من النور . وكالتعبير عن كون الفاطر فطر الانسان فطرة بديعة وآتاه فضلا من العناية (كأن سخر له الارواح السارية بطوعاً، والاجسام الجارية ظهوراً، والعادلات عدلاً) بأنه سوّاه بيده، ونفخ فيه من روحه، وخلقه على صورته، واستخلفه في أرضه، وعلى هذين المثالين قيسوا ما اختلافه بين صريح وكناية، وعبارة واشارة، ولو شئنا لسردنا ههنا من الامثلة مئات، تنتفع بها الفئات، فليستمع من قرعت سمعهم هذه الاشارات، يتابع ذكرهم الفائضات .

والغرض من كل ذلك أن الذين يلهمون الحكمة الصافية لا يبدمون ما يبثون به الناس دينهم الذي احبوه من فم شخص، وكرهوه من فم آخر، وهو واحد

ذلك الدين الواحد هو ما أمر به المرسلون من اسلام النفوس الى بارئها وتصحيح الارادة وتوجيهها نحو الكمال الذي اعتد للفطرة ان تناله «فطرة الله التي فطر الناس عليها» . «ان الدين عند الله الاسلام» «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو مؤمن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً» . ولم تلك ملة ابراهيم الا ملة الفطرة، فقد سمعتم أنه عاف تلك الاوضاع التي كانت في قومه «الصابئين» وهاجر من ديارهم ولم يك في ملته تلك الوسائل والاجزاء التي اقتضاها من بعد ذلك زمان موسى ثم لم يقتضها زمان عيسى ولا زمان محمد (عليهم السلام)

فيالله كم من فضل ومنة علينا لهادينا الرؤف الرحيم ، ومرشدنا الرسول الكريم، الذي أنقذنا من الضلة ، اذ دعانا الى هذه الملة . ملة الانبياء كلهم كما أوحي اليه: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» وفي آية أخرى «قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون»

أما البعيدون عن العلم فهم عن هذا معرضون، يضنون المشاحة في الكلم والاسماء، والكر على الوسائل والاجزاء، لب الغرض وروح الدين، وغاية المطلوب من الطيبين الطاهرين، ونهاية الزلف عند رب العالمين . ولو كان كذلك لما غير الانبياء شيئا من وسائل من قبلهم

اذقد أمروا ان لايتفرقوا في الدين، فهل هم يخالفون الوحي؟ كلا أم اوحي لكل منهم دين على حدة ؟ كلا وانما أوحي لكل منهم شرعة ومنهاج، ووضع لكل منهم في ترقية الناس معراج ، وبين الدين والشرعة فرق لغوي واصطلاحي . فاسألوا أهل العلم ان لم تعلموا وقد حررنا لكم آنفاً مايفيدكم هذا ان كنتم تذكرون

وإنا لسائلوهم هل لب الدين تلك المسائل التاريخية التي وقعت كما وقعت ثم اختلف التعبير عن كيفية وقوعها . هل غاية مايتوقف عليه رضا الباري وغضبه القول بأن زيداً أهانه عمرو أوانه لم يهنه عمرو وانما أهانته يد سرية ورأى الناس يد عمرو فحكموا انه هو الذي أهانه ولكنهم في الحقيقة واليقين لم يصيبوا في حكمهم لان الذي أهانه يد سرية لايد عمرو هل هذا كل الدين؟

وسائلوهم هل منتهى الدين أمور تتعلق بالعادات البشرية من قيام وقعود، وسهر وهجوع ، وشبع وجوع ، وذهاب ورجوع ، واقامة ورحيل ، واعلاء وتنزيل ، وأمور أخرى تتعلق بالابدان، من لحم وشعر وظفر واسنان، أوهذا هو الدين أوهذا كل الدين؟

وسائلوهم هل بلغ زلف المتدينين ان يقفي بعضهم بعضاً ان استطاعوا أو يقبل المغلوب ما قبل الغالب . اذن أين حرية التفكر . اذن أين الفضيلة للمكره فيما يأتيه بظاهره وينكره باطنه ؟

هنالك أسئلة كثيرة يسئلها من ظنوا تلك الظنون ، وتربص بعضهم ببعض ريب المنون

أما نحن فسيسألنا سائل من أهل الملل قائلا : هل أنت تنكر الوسائل مطلقا. وهل الوصول الى ذينك الركنين يكون بدون الوسائل ، وهل انت غير معتبر لوسائل دين من الاديان وبهذا الاعتبار ألا ترد غيرها ؟ وحينئذ فما ثمرة تطويلك هذا الذي لايقنيك مثل غيرك عن تفنيد الذاهبين الى وسائل شرعة اخرى ؟

فنقول لهؤلاء انه من المؤكد اننا نقبل الوسائل التي في دين محمد (عليه السلام) لانها قسمان (١) قواعد عامة شرعية يمكن البناء عليها في كل زمان ومكان و (٢) قواعد عامة أدبية معينة ومساعدة للقواعد الشرعية . ومن شاء ان يسألنا عن قاعدة منها لايقبلها العقل فليفعل .. ولكن قبولنا ذلك هل يغنينا عن تذكر القاعدة العظمى التي يبنى عليها الاخاء الكبير ، أم يأمرنا به وبالتذكير ؟

انهـا رأيت الناس (منهم) من نسوا الجوهر الذي منه واليه مشكل الاديان، ومنه واليه صلاح الانسان . وظنوا ان الخير كله والدين في مخالفة غيرهم في كل شيء (*) و(منهم) من اختلفوا في فهم وسائلهم فاقتسموا على أنفسهم . ومنهم من أقاموا ناساً منهم مقام المرشدين الذين يستمدون عصمتهم فعشوا بالمقاصد والوسائل عمداً أو خطأ . و (منهم) من ليس له من الاديان الا النسبة التي أصبحت بمقام النسبة للقوميات لما رأيت هذه الاحوال الضارة التي ليست من الاديان في شيء نوهت بتطويل هذا تذكيراً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، بالجوهر وتنفيداً لمن اقاموا أقل الوسائل اعتباراً مقام المقاصد العظمى على حين ان الشعوب تشابهت في الحاجات المادية والادبية وتشابهت في عدم العلم والعمل بأديانهم المقاصد والوسائل. فمن تذكر هذا التذكير يرجى به ان يتخذ نبراساً يخرجه من الظلام ، ويهديه سبل السلام، وان قبل هذه الذكرى عاقل

من أ ثم ١ من ب ثم ١ من ج ثم ١ من د فهذه هي الثمرة المطلوبة لان $\frac{1}{2}$

وسيقول بعد هذا من يدعون حب الحكمة من الذين لم يربطوا بعروة من عرى الاديان كلها: إن هذا الذي حررته الاشعر أوحاه حب المألوف وان جنى الناس من الديانات إلا التذابح. فيالله العجب هل حدث التذابح يوم حدثت الديانات أم هي سنة البشر من قبل؟ ألم يكن من ثمرات الاديان تخفيف ذلك التذابح القديم ؟ ألم تحشر الشعوب الكثيرة المتغايرة في الالسنة والالوان . المتباعدة في العادات والبلدان ، تحت رايات قليلة هن رايات الاديان ؟

(*) قيل لهندي عامي هل تصلي قال: آكل البقر الحمد لله: ورأيت قوماً يرمون شخصاً بالكفر فسألتهم عن دليل كفره فقالوا إنه لبس قبعة في أوربا . وأخبرني شيخ معمر ثقة – لا يزال حيا – عن نفسه أنه كان هو أول من لبس القوندرة (الجزمة) في هذا البلد فرآه أحد الاعيان فاستحضر أخاه وقال له ان أخاك لم يبق عليه الا ان يعلق صليبا في عنقه. قال فما بالك؟ قال اني رأيته يلبس قوندرة أليس هي من زي الفرنجة ؟ فعاد على أخيه باكيا ناحبا قال فما بالك قال انك لبستا العار بلبستك هذه وقص عليه الخبر . ولكن لم يمض عام حتى لبس المعمر تلك اللبسة فقال له كما قال له فخجل وطلب منه الاقالة.

وإنا لسائلوهم لو لم تكن الاديان التي تدور على الخوف والرجاء من القوة الغيبية، والعدل والاحسان في البرية . كيف كان المرء يصنع اذا حفت به المصائب، وانهكته النوائب، أيجتلب بيده لنفسه المنية، لانه رأى الحياة قرارة الآلام الحقيقية، وعش الآمال الوهمية، وكيف بيده يذهب الحياة وهي حبيبه وان عضته، ومناه وان متنه قمنته ؟ أم يصبر تحت ما ثقل من اعباء الحياة صبر الحمار الذي لا غرض له في المحمول ؟ ولا أمل له بغير العلف المأكول ؟

وكيف يصنع المرء اذا لاحت له رغائب، فيها للغير مطالب، أيرعى الغير وهو على أن يبيده قدير، وبأن يؤثر نفسه جدير، أم يبيده في الهوى، ويفعل الآخر هكذا حتى لا يبقى سوى، أم للرغائب حد تقف النفس لديه، أو مطلوب اسمى تلتفت اليه. أهذا شرعكم أيها الناهون أن يبيد القوي الضعيف أنى شفه، ويشيد على الخبايات والجبانات شرفه، فكم اخطأ الناس اذ لم يتبعوا فيكم شرعكم، ويذروا لكم ذرعكم، كأن لذتكم ان لا تكون الحكمة اتى بها نظام العالم التي من أجل ارحكم من هم أقوى منكم وتركوكم بواهيكم كلها تعتمون. أفهذا جزاؤكم للحكمة أن تغيروا عليها بخميس كثيف من التوهيمات الشعرية التي تريدون ان تهدموا بها قواعدها، وتحرموا الناس فوائدها ؟

أفأمنتم من أنصارها الحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، ما تظنون، وبئس ما تصنعون، فتفكروا لعلكم ترشدون، وتذكروا لعلكم تشكرون.

خلاصة

والخلاصة من كل التفصيلات المتقدمة أن اقبال الجماعات الكثيرين، على دعوة هاد من الهداة المظهرين، معراج من معارج الانسان في العلم بعد الجهل، والقوة بعد الضعف، فالفضيلة التي تكره الضر، وتنهى عن الشر، تبتهج نفسها بهذه الامم التي تربي في حضنها أقوامًا تباعدوا في الصور، كما تباعدوا في الكور، حتى صاروا يتقاربون في القلوب، ويرحم الغالب منهم المغلوب، والسياسة التي تهوى القوي، لتوزن كل جماعة مع السوى، تقرعينها بهذه الامم التي تربي لها طامية، لا تسأل يوم الواقعة ماهيه.

(ع . ز)